معالجة الأجرام

يمكن أن نجد الصلة بين المجرم والمجنون فى ناحية اجتماعية معينة هى عجز كل منهما عن الملاءمة بينه و بين الوسط .

فالمجنون — سواء أكان مبتدئا بالنيوروز أو منتهيا بالسيكوز — يجد نفسه عاجزا عن التوفيق بين مطالبه الانانية ومطالب المجتمع الغيرية فيعمد إلى الاختلاء . ويكظم فى نفسه شهواته ويتجنب الاختلاط ويستسلم للأحلام والأمانى التى تعوضه من الحقائق المؤلمة ، وقد يهرب من هذه الحقائق بالخمر . وقد تنتهى الأمانى التى يتسلى بها إلى سيكوز أى جنون كامل . وهو فى كل هذه الحالات كاظم عاجز عن مواجهة الحقائق يضع شهواته الأنانية التى جسمتها فى نفسه مساوئ التربية أيام الطفولة أو عقبات أخرى فوق مصالح المجتمع .

وكذلك المجرم يجد نفسه عاجزا عن التوفيق بين مطالبه الانانية ومطالب المجتمع الغيرية ولكنه يختلف عن المجنون أو الزائغ بأنه لا يكظم بل يخرج بالعمل . والعمل هنا هو الجريمة فالزائغ يخلو إلى نفسه ويعتقد أنه مظلوم ويحلم ويستسلم للأمانى ولا يؤدى عملا مفيدا وهو فى هذه الحال ، وقد يفر من المجتمع بالخمر . ولكن المجرم عند مايجد أنه غير ملتئم مع المجتمع يعمد إلى التعريج عن كظمه بالهجوم على مختلف أوضاعه فيسرق أو يفسق أو يقتل .

والغرائز لانسانية ليست جميعها على درجة واحدة من القوة والثبات فى نفسنا ، فأقوى غرائزنا هى تلك التى تخدم أنانيتنا من طلب الطعام والجنس الآخر والاقتناء الخاص ، وأضعفها هى تلك التى تخدم المجتمع كالرغبة فى الالفة مع الناس وكراهة الانفراد وكالرغبة فى المساواة والعدل والبر وما تجره هذه المعانى من أخلاق أخرى .

وإذا وجد أحدنا نفسه فى مأزق قد اصطدمت فيه الغرائز الانفرادية بالغرائز الاجتماعية فإنه يحتاج إلى أن يزن جميع العوامل والعناصر لكى يوفق بينهما ويعيش فى المجتمع المعيشة الراضية التى تحول بينه و بين أن يكون عضوا نافرا فيه ، فإذا لم يوفق إلى هذا فإنه ينتهى بالزيغ النفسى . فإذا اتخذ هذا الزيغ أسلوب الكظم كان جنونا (نيوروز أو سيكوز) وإذا اتخذ طريقة التعريج كان إجراما .

فالمجرم والمجنون كلاهما زائغ . ولكن الزيغ عند المجنون يجد الآن المعالجة النفسية الرفيقة التى يقصد منها الى رده الى المجتمع ، وذلك بأن نوضح له أن الأوهام والأسلوب الذى يتبعه فى زيغه إن هى إلا وسائل يريد بها الفرار من الواقع . وأنه يجب عليه أن يواجه هذا الواقع

بكل ما فيه من صعوبات . وهى صعوبات يعتقد هو انها فوق طاقته ولكنها فى الحقيقة ليست كذلك .

أما الزيغ عند المجرم فلا يجد أية معالجة نفسية . بل نحن نعامله كما نعامل المجانين قبل نحو قرن ، حين كنا نحبسهم ونعتقد أن بهم روحا شريرا يتسلط على سلوكهم . وقد ثبت أن ٧٥ فى المائة من المجانين يمكن علاجهم لأن أمراضهم نفسية وليست عضوية . مع أنه لم يكن يشفى منهم أحد حين كان الحبس هو الأسلوب الوحيد لمعاملاتهم .

فهل نستطيع أن نعالج الإجرام بنفس الأسلوب الذى عولج به الجنون ؟ وكيف تكون هذه المعالجة ؟

إن الأساليب التى تتبع مع المجنون متعذرة ؛ ولكن الغاية واحدة ، وهى رده الى مجتمع بمواجهة الواقع حتى يتئم ويتعاون معه . وهذا ممكن مع المجرم أيضا .

ولكن هناك فرقا بين المجنون والمجرم ، فان المجنون فى أغلب الحالات يحترف ويمارس عملا ثم يجنح الى الزيغ لأسباب اجتماعية فى أغلب الأحوال . ولكن المجرم يجنح الى الزيغ أى الاجرام لأسباب اقتصادية فى أغلب الأحوال ، أى أنه لا يمارس حرفة كاسبة أو هو يكره الجهد والمثابرة والمرانة التى يحتاج اليها نظام العمل فى مجتمعنا . فالمجرم يحتاج لهذا السبب الى أن نعلمه عملا كاسبا يكفل له العيش ويثبت له معه أنه يمكنه أن يعيش به عيشا راضيا بعيدا عن أخطار السرقة والبطش والتزوير وسائر ألوان الزيغ .

ولسنا فى حاجة الى أن نشرح عيوب السجن . فكلنا يعرفها ؛ ولسنا فيها منفردين لأن عشرات الدول الأخرى تعالج الجريمة بالسجن كما نعالجها . واذا استثنينا دولة أو دولتين تعالج المسجون بالتعليم والتدريب اللذين يؤهلانه لأن يعمل ويكسب ويستبدل بالاجرام كسبا حلالا من عمل حلال فاننا لا نكاد نجد أى تجديد فى النظر الى الاجرام .

وقد قلنا إننا لسنا فى حاجة الى أن نشرح عيوب السجن . إذ من منا يجهلها ؟ ألسنا نرى المجرمين يخرجون بعد سنوات قضوها فى أعمال لا هى تفيد الدولة بإنتاج له قيمته ، ولا هى تفيدهم بتعليم أو تدريب . وسرعان ما يعودون الى السجن ويجزون بعقوبات أقسى مما نزل بهم فى المرات السابقة . ثم تقضى المدة الجديدة ثم تعاد العقوبة وهلم جرا

وهذه الحال لها ما يماثلها فى جميع الأقطار . فقد قام الأستاذ هيرمن مانهيم بجامعة لندن بإحصاء جمع فيه التفاصيل الخاصة بعدد من المسجونين يبلغ ١١٩٧ ومن المسجونات يبلغ ٧٧ فى مدة عشرين سنة تقع بين سنة ١٩١٥ وسنة ١٩٣٥ فى السجون الانجليزية . وليس بين هؤلاء مسجون أو مسجونة إلا وقد حبست أربع مرات على الأقل ومن عجيب ما وجد

أن فترة الحرية التى قضاها كل من هؤلاء بين الافراج والأشغال قصيرة جدا، و إليك بعض الأمثلة من حياة هؤلاء المجرمين :

فى ٣١ سنة قضى مسجون ٣٠ سنة فى السجن بثمانيـة أحكام .

« ٣٦ « « ٣٤ « « بعشرة « .

« ٢٣ « « ١٩ « « بستة « .

« ٢٠ « « ١٩ « « بخمسة « .

« ٣٦ « « ٢٠ « « بستة « .

« ٢٢ « « ٢٠ « « بخمسة « .

وهذه الأرقام تدل القارئ على أن السجن يكاد يتادى المسجونين بعد خروجهم . لأنه قد رتب لهم أساليبا فى العيش يعجزهم عن الملاءمة بينهم و بين المجتمع .

ومما وجده الأستاذ مانهيم بعد أن بحث حالات ٧١١ عائدا و ٤٥ عائدة أن ٦٠ ٪ منهم قد ارتكبوا الجريمة الأولى قبل أن يبلغوا الثانية والعشرين من أعمارهم ، وأن ١٣ ٪ من الرجال العائدين ارتكبوا الجريمة الأولى قبل أن يبلغوا الثالثة عشرة من أعمارهم . وقليل جدا هم الذين ارتكبوا الجريمة الأولى بعد الأربعين . ومن هنا نفهم أن الاجرام أسلوب يتبعه المجرم منذ شبابه بل صباه ، لأنه عاجز عن اتخاذ أسلوب اجتماعى آخر .

ووجد الأستاذ مانهيم أيضا أن أعظم الأسباب لجرائم الصغار تعود إلى الفاقة البيتيـة إما لأن العائل متوفى، وإما لأنه عاطل مريض عاجز عن الكسب ، و إما لأن الوسط البيتى أو المدرسى سيىء . وقد رتب هـذه الظروف من ناحيـة درجاتها فى استحداث الاجرام فى الصبيان بما يلى :

الأحوال البيتيـة سبب للإجرام فى ١٣٣

تعطل العامل « « ١٠٨

الاختلال الذهنى « « ١٤٤

ولكن هذا الاختلال الذهنى قد يكون هو الآخر نتيجة لسوء المعيشة البيتية .

ويستنتج المؤلف أن الفاقة هى السبب الأكبر للجرائم الصغيرة . وهى أيضا أحد الأسباب للجرائم الكبيرة . ولكن العبرة الكبرى من الكتاب أن السجن لا يعالج المجرمين .